مشكلات الحضارة في فكر مالك بن نبي

إعداد

د. احمد علي ويس

الخبير اللغوي

أ.م.د. صفاء علي حسين

مستخلص البحث

لقد اهتم مالك بن نبي بمشكلة التخلف المزمنة متجاوزا الأسباب الثانوية وغير المباشرة وواضعا اليد على الأسباب الحقيقية والمباشرة لهذه الظاهرة الضاغطة على حياة أكثر من نصف تعداد البشرية مشيرا إلى أن الحل عند الذات لا عند الآخر من خلال تحول الشعوب من الفقر والعجز إلى القدرة والفعالية والتحول من التكديس إلى البناء والتحول من المطالبة بالحقوق إلى تنفيذ الواجبات وصنع الحضارة لا تكديس منتجاتها .

لقد وردت هذه الأفكار في سلسلة من مؤلفاته أهمها شروط النهضة والفكرة الأسيوية –الأفريقية ويوميات شاهد للقرن ومشكلة الأفكار في العالم الإسلامي .

Abstract

In the name of God, Most Gracious, Most Merciful

Praise be to Allah, the Lord of the world, and peace be upon His prophet Mohammed and his family and followers.

Malik Bin Nabi is one of the scholars and thinkers who took care of the issue of civilization. He produced several works which is considered (when they are collected) as an integral approach to understand the basis of civilization and the ways of its rise and then the causes of its deterioration and fall back as well as the treatment of these causes.

The thinking of Malik Bin Nabi is considered as an extension to the thinking of the great scholar Ibn Khaldun who direct his attention to the reasons of establishing the communities on intellectual and civilizational bases.

This research sheds light upon the problems of civilization in the thinking of the philosopher and thinker Malik Bin Nabi.

تمهيد

ولد مالك بن نبي في قسنطينة(الجزائر) عام 1905م وأنهى دراسته الثانوية هنالك قبل إن يغادر إلى فرنسا إذ درس في معاهدها ونهل من علومها المختلفة ليتخرج مهندسا كهربائيا من معهد أللاسلكي عام 1935 بعد إن فشل في الالتحاق بمعهد الدراسات الشرقية لكونه مسلما ، لقد أفاد ابن نبي من دراسة الهندسة والرياضيات في ترتيب أفكاره وتهذيبها لينطلق منها إلى التحليل العلمي لمشاكل العالم الثالث عامة والعالم الإسلامي خاصة.

لقد اهتم مالك بن نبي بمشكلة التخلف المزمنة متجاوزا الأسباب الثانوية وغير المباشرة وواضعا اليد على الأسباب الحقيقية والمباشرة لهذه الظاهرة الضاغطة على حياة أكثر من نصف تعداد البشرية مشيرا إلى أن الحل عند الذات لا عند الآخر من خلال تحول الشعوب من الفقر والعجز إلى القدرة والفعالية والتحول من التكديس إلى البناء والتحول من المطالبة بالحقوق إلى تنفيذ الواجبات وصنع الحضارة لا تكديس منتجاتها .

لقد وردت هذه الأفكار في سلسلة من مؤلفاته أهمها شروط النهضة والفكرة الأسيوية –الأفريقية ويوميات شاهد للقرن ومشكلة الأفكار في العالم الإسلامي .

اضطر مالك بن نبي إلى مغادرة فرنسا عام 1956 صوب جمهورية مصر العربية بسبب اشتداد حرب التحرير الجزائرية، وبعد انتصار الثورة عاد إلى بلاده عام 1963 إذ عين مديرا عاما للتعليم العالي وفي عام 1967 استقال من منصبه متفرغا للتأليف وعقد الندوات الفكرية .

تزوج مالك بن نبي خلال إقامته في فرنسا من مهندسة فرنسية أسلمت وغير اسمها إلى خديجة وكان لها دور كبير في تقوية القيم الجمالية لديه،وبعد عودته إلى الجزائر تركها وتزوج من جزائرية أنجبت له ثلاث بنات .

مات مالك بن نبي عام 1973 وما زالت أفكاره حيّة متداولة بين أبناء الأمة العربية والإسلامية وكأنها تحاكي اليوم مشاكل العراق وفلسطين والصومال وأفغانستان ، إذ اختلفت وجوه المستعمرين والمحتلين وبقيت النتيجة واحدة نهب الثروات وهدر الكرامة وخرق الاستقلال ودعم لأعداء الأمة العربية والإسلامية.

الاستعمار والقابلية على الاستعمار

عايش مالك بن نبي الحربين العالميتين ورأى بأم عينيه ما أحدثته من دمار في طول العالم وعرضه وما حصدته من ضحايا بشرية تقدر بعشرات الملايين من البشر وكانت أصوله العربية– الإفريقية– الإسلامية من جهة ومحل إقامته ودراسته في فرنسا من جهة أخرى قد أتاحت له الفرصة الكاملة ومن زاويتين متقابلتين أن يطلع على الظاهرة الاستعمارية التي شغلت تفكيره طوال عقود من حياته حتى صدور قرار الأمم المتحدة المرقم 1514 في 1960 /12 /14 بتصفية الاستعمار[1] . إذ تخلصت الشعوب ولو ظاهريا من نير الاستعمار مع إن الدول الاستعمارية خرجت من الباب ثم عادت من الشباك في نهب ثروات الشعوب وتنصيب القادة وفرض الهيمنة الاقتصادية والسياسة على هذه الشعوب [2].

ابتداء يقر مالك نبي إن العرب والمسلمين قد جاهدوا المستعمرين على مختلف مسمياتهم بشكل مشرف ولكن مشكلتهم أنهم لم يدرسوا أسباب وعوامل وجود الاستعمار على أرضهم والوسائل العلمية الواجب تأمينها كشرط للتخلص منه. إن الاستعمار في حقيقة الأمر ،ليس من صنع السياسيين الإسلاميين وليس نتيجة ارتباطهم بالاستعمار لان هؤلاء السياسيين وبكل الأحوال هم نتاج المجتمع الإسلامي وهم انعكاس لحاله تقدما وتخلفا فإذا كان المجتمع العربي نظيفا حرا متقدما فلا يستطيع السياسيون الإسلاميون إن يكونوا مطايا للاستعمار ،وإذا كان المجتمع الإسلامي متسما بالقابلية للاستعمار فلا بد إن يكون السياسيون الإسلاميون أدوات

لهذا الاستعمار .

هذه الظاهرة الاجتماعية تدعونا لان نقرر إن الاستعمار ليس من صنع السياسيين الإسلاميين بل هو من النفس ذاتها التي تقبل ذل الاستعمار وتمهد له لان من عادة التاريخ إلا يلتفت إلى الأمم التي تغط في نومها وإنما يتركها لأحلامها، وليس ينجو شعب من الاستعمار وعملائه إلا إذا تخلصت نفسه من الروح التي تؤهله للاستعمار ولا يذهب كابوس الاستعمار بكلام أدبي أو خطابي في مهرجانات الشعر أو حلقات الذكر أو المسارح العامة وإنما بتحول نفسي يصبح معه الفرد بتقادم الزمن قادرا على القيام بواجباته الاجتماعية والوطنية معتزا بذاته وحينئذ يرتفع عنه طابع القابلية للاستعمار وبالتالي لن يقبل حكومة استعمارية تنهب ماله وتمتص دمه،فكأنه بتغيير نفسه قد غيّر وضع حاكميه تلقائيا إلى الوضع الذي يرتضيه [3].

من الواضح إن السياسيين الذين يجهلون أسس علم الاجتماع وقواعده يقيمون سياسة دولهم على العاطفة الجوفاء والخطابات الرنانة ونسوا الآية الكريمة التي اتخذها العلماء والمصلحون شعارا لهم في تأسيس دعوتهم "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم "الرعد،اية11.

إلا أنها شريعة السماء فبتغير النفوس يتغير التاريخ ويحدث التغيير بتطوير التربية والتعليم والصحة وتطهير الأخلاق وضمان مستقبل المرأة ومنحها حقوقها واستخدام رؤوس الأموال بشكل عقلاني على وفق خطط مدروسة بما يسهم في تقدم البلاد بعيدا عن منطق الغوغاء والرياء والذاتية والنزعات الانتخابية ، فقد أصبحت لكل مفردة من هذه المفردات إسهاما في بناء النهضة والتقدم،تماما كما تسهم القشة الصغيرة في بناء عش الطير إبان الربيع[4] .

لقد درج الاستعمار على تحريف معادلة الفرد المستعمر باستخدام أنواع من العراقيل المتعددة التي يواجهها الفرد في حياته العامة لتضييق نشاط الحياة في البلاد المستعمرة حتى تكون مصبوبة في قالبٍ ضيق ليسهل علية السيطرة على مفاصل

الحياة ، فهو يريد منّا جهلة يستغلهم، وبطالة يحصل من ورائها يدا عاملة بثمن بخس ويريد منا انحطاطا في الأخلاق كي تشيع الرذيلة بيننا وهو يريد تشتيت مجتمعنا وتفريق إفراده شيعا وأحزابا كي يحل بهم الفشل في كل نواحي الحياة وهو يريد منا أن نكون أفرادا تغمرهم الأوساخ ويظهر في تصرفاتهم الذوق القبيح حتى نكون قطيعا محتقرا ناشطين لتلبية دعوته .

إذا القضية منوطة بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته ،من حيث نشعر أو لا نشعر ،وما دامت له سلطة خفيّة على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا فلا رجاء في استقلال ولا أمل في حرية وقد قال احد المصلحين " اخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم ".

إن القابلية للاستعمار تعني حالة التخلف الذهني والسبات اللذين ترزح تحتهما الشعوب قرونا عدّة قبل إن تستفيق على المأساة الاستعمارية .

والقابلية للاستعمار تناولها كتاب غربيون بمفاهيم ورؤى أخرى ، إذ يرى ارنولد توينبي في كتابه دراسات تاريخية إن سبب الانحطاط يجب إن لا يفسر بضياع قيادة الوسط الإنساني تحت وطأة التطاول الأجنبي على حياة مجتمع معين، إذ إن العدو الخارجي سيرتكب بالتأكيد اشد أنواع المكر في توجيه الضربة القاضية لشعب يقدم على انتحار محقق من خلال تخلفه وانحطاطه .

بينما يشير غروسيه في كتابه موازنة التاريخ إن أية حضارة لا تنهار من الخارج دون إن تتآكل هي نفسها من الداخل وتحمل في بذورها الانتحار.

إما مونتسيكيو فيؤكد في كتابه تأملات في أسباب عظمة الرومان وانحلالهم فيقول :ليست الثروة هي التي تحكم العالم، ويمكن أن نرى ذلك عند الرومان الذين تمتعوا لفترة مستمرة بالرخاء حينما حكموا أنفسهم بسياق معين ، ثم ولفترة غير منقطعة عادوا إلى الوراء عندما انقادوا في سياق أخر ، ومن هنا فانه إذا قدّر لمعركة إن تهدم دولة فان هناك في الحقيقة سببا عاما وغير مباشر قضى بفناء تلك الدولة في

معركة واحدة وبمعنى أخر فان السياق الرئيس يجر معهم سائر الحوادث الخاصة[5].

وفي سياق ما سبق يرى مالك بن نبي أن الاستعمار بعده (ضرورة تاريخية) فيجب التفرقة بين بلد محتل وبلد مستعمر ، ففي حالة البلد المحتل توجد كل مقومات الحضارة من تقدم علمي وثروات وشعب نابه وبذلك يكون الفرد غير قابل للاستعمار ومثال ذلك غزو الرومان لليونان فروما لم تستعمر اليونان ولكن غزتها وانكلترا لم تستعمر ايرلندا الخاضعة لها دون استسلام وإنما احتلتها وان دولا مثل ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية تحل بأرضها جيوش الاحتلال ولكن لا تكون فيها ظروف استعمارية بسبب تقدمها الاجتماعي والصناعي وتوفر شروط الحضارة فيها.

إما البلد المستعمر فان جميع الظروف الاجتماعية التي تحيط بالفرد تدل على القابلية للاستعمار وفي هذه الحالة يصبح الاحتلال الأجنبي استعمارا وقدرا لا مفر منه ومثال ذلك احتلال انكلترا للهند واحتلال فرنسا لأغلب الدول الإفريقية ذلك إن تلك الدول المتخلفة لديها القابلية للاستعمار بسبب عدم فعالية شعبها وتخلفها الاجتماعي والثقافي والمثال الأفضل للقابلية للاستعمار هو اليمن تلك الدول التي لم تفقد استقلالها لحظة واحدة لكنها لم تفد من ذلك الاستقلال أدنى فائدة لأنها قابلة للاستعمار لعجزها عن القيام بأي جهد اجتماعي ومع ذلك فان هذا البلد لا يدين باستقلاله إلا لمحض القدر إذ وجدت ظروف دولية مواتية حفظت استقلاله . وعليه فان المشكلة الرئيسة هي انه لكي نتخلص من الاستعمار يجب أن نتخلص من القابلية للاستعمار[6] .

يعد الاستعمار من الناحية الأخلاقية نكسة في التاريخ الإنساني ولن تنفع كل المسوغات التي دفعت بها الإمبراطوريات القديمة للتبرير استعمارها للشعوب ونهب ثرواتها من خلال القول إن الاستعمار رسالة أخلاقية وشرعية للرجل الأبيض في نشر الحضارة وإيصال النور والعلم والتقدم إلى الشعوب المتخلفة و كذلك الادعاء بتامين طرق التجارة وضمان حرية البحار بما يضمن انسيابية وصول البضائع والمواد الخام إلى محتاجيها بما يساهم في تنمية البشرية [7] .

ترجع أصول الاستعمار من الناحية التاريخية إلى الإمبراطورية الرومانية إذ وضعت هذه الإمبراطورية طابعها الاستعماري في سجل التاريخ منذ تأسيسها عام 746 ق.م فقد أخضعت هذه الإمبراطورية تحت سلطانها اغلب أبناء الشعوب الأوربية وأجزاء من آسيا وكان لكل شعب من هذه الشعوب قانون خاص به الأمر الذي يتنافى مع مبدأ المساواة وقد عمرت هذه الإمبراطورية أكثر من أربعة عشر قرنا وتوصف بأنها حضارة عسكرية لتوسعها بالقوة مع مرور الزمن وتعدد ولاياتها وتعدد الشعوب التي كانت تحت سيطرتها[8].

وقد أعقب الإمبراطورية الرومانية العهد الإسلامي الذي كان في الواقع تجربة من نوع جديد في تاريخ علاقات الشعوب مع بعضها فنحن لا نرى الحكم الإسلامي قد استعمر الشعوب الأخرى بمعنى مادي منحط بل كان فتحه لبلاد جنوب فرنسا واسبانيا وإفريقيا الشمالية لا لاستغلالها ونهب ثرواتها ولكن لضمان ضمها للحضارة الإسلامية في الشام أو العراق دون أن يكره مسيحي على تلك مسيحيته ويهودي على ترك يهوديته وأقباط مصر ويهودها يشهدون بان الإسلام لم يكن دينا بل حضارة تعم البلاد [9] .

إن اخطر أنواع الاستعمار هو الاستعمار الحديث في القرنين التاسع عشر والعشرين الذي اهلك الحرث والنسل وسلب الكرامة ونهب الثروات وأذل الشعوب على وفق نظرية المفكر الفرنسي ارنست رينان الذي يرى إن الاستعمار ضرورة سياسية بالدرجة الأولى لان غزو بلد من عرق ادنى من بلد من عرق أعلى لا يدعو إلى الاستنكار ، عندما يكون الغزو بين أعراق متساوية فذلك يدعو إلى الاستهجان لكن تجديد الأعراق المنحطة بأعراق عليا فتلك عناية إلهية للإنسانية.

يرى رينان إن العرق الصيني ذو مهارة يدوية مدهشة دون أي أحاسيس بالمهانة من العمل وانه بحق عرق الشغيلة ويوصي بان يحكم بالعدل وسيكون راضيا ، ثم يرى إن هناك عرقا خلق لزراعة الأرض هو العرق الزنجي ويوصي بان يعامل هذا العرق بطيبة وإنسانية وسوف يبقى يخدم العرق الأبيض دون أية مشاكل [10] .

إذا بهذه العقلية الفوقية يحكم ويستعمر ويحتل العالم الإسلامي دون أي شعور بالظلم أو تأنيب للضمير من الاستعمار، لان الرجل الأبيض حسب رأيهم عرق سامي والأسيوي والإفريقي عرق واطئ، وما دام الأمر كذلك ، فأن الله يرعى الاستعمار بتجديد الأعراق الأسيوية والإفريقية المنحطة .

الصراع الفكري

يضطر الاستعمار إلى التواجد بإشكال مختلفة في الدول التي تحاول أن تستيقظ من سباتها العميق وما دامت هذه الدول غارقة في نومها وثرواتها وأرضها وسمائها نهب لإطماعه فان تواجده غير ضروري في ساحة ذلك البلد ، وأول ما يحاربه الاستعمار " الفكرة المجسدة " وخلاصتها إذا حاول احد رموز البلد المعتبرين أن يقوم بجهد فكري وعلمي من اجل إيقاظ شعبه من السبات وحثهم على التزاحم والتنافس والتدافع مع الشعوب الأخرى من اجل الارتقاء بواقع الشعب سياسيا واقتصاديا و اجتماعيا وصناعيا والمحافظة على سيادة الشعب وثروات الأمة ، هنا يحاول الاستعمار إقصاء هذا الرمز الوطني بأي طريقة مناسبة وممكنة وهذا ما يفعله الاستعمار في غير دول عربية وإسلامية مثلما فعل مع الشيخ بن مهنا والشيخ عبد القادر المجاوي في الجزائر مثلا .

غير إن الخطر الكبير بالنسبة للاستعمار هو تحول " الفكرة المجسدة" إلى " فكرة مجردة " استقرت في ضمير الشعب وتنادى للدفاع عنها بأكثريته وأصبحت قضيته وفكرته وخبز يومه .

وهنا يبدأ الصراع الفكري على حقيقته ، إذا إن الاستعمار سوف يجتهد في امتصاص القوى الواعية في البلاد المستعمرة بأي طريقة ممكنة حتى لا تتعلق "بفكرة مجردة " والاستعاضة عنها "بفكرة مجسدة" اقل قيمة يمكن مقاومتها إما بوسائل القوة أو بوسائل الإغراء[11] .

على إن الاستعمار لن يكتفي بذلك ، بل انه سوف يواصل حربه على "الفكرة المجردة " بوسائل ملائمة أكثر مرونة ويستعين بخريطة نفسية للعالم العربي والإسلامي وهي خريطة تجري عليها التعديلات اللازمة في كل يوم يقوم بها رجال متخصصون مكلفون برصد الأفكار ومن هنا يقوم الاستعمار بتوجيه إعماله ودسائسه بما يواجه الوعي والنهوض في هذه البلدان. انه يستخدم الفكرة المتجسدة في مستوى الطبقة المثقفة فيقدم للمثقفين شعارات سياسية تسد منافذ إدراكهم إزاء الفكرة المجردة . ثم انه يستخدم لغة الدين في سعيه لمقاومة الفكرة المجردة لان الدين يمكن استخدامه من وعاض السلاطين في رمي أصحاب الأفكار البراقة بالمروق من الدين أو الارتداد عنه بما يضمن للاستعمار عزلهم عن محيطهم الاجتماعي ذلك إن الدين يسد بصورة محكمة منافذ الوعي إزاء الفكرة .

وبمستوى آخر يستغل الاستعمار جهل الجماهير لينشئ حول الفكرة منطقة فراغ وصمت لإبعادها عن المجتمع ذلك إن الجماهير على الأعم الأغلب تتبع أعلى الأصوات الناعقة وليس لديها القدرة والكفاية على المحاكمة العقلية الرصينة وغالبا ما تكون عقولهم في عيونهم والعين عاجزة عن رؤية المعنويات[12] .

ثم يتدرج الاستعمار في أحابيله ودسائسه حتى يصل إلى أحط مستوى في الدرك الإنساني إلا وهو استخدام سلاح المال لشراء ذمم النفعيين والخبزيين وشذاذ الآفاق من أبناء البلد ، الذي اتخذوا المال ربا لهم من دون الله ، إذ يكون الاستعمار بسلاح المال صداقات أو اتفاقات في البلاد المستعمرة تساعد على توجيه وتحقيق مصالحه الاقتصادية والسياسية وبما يضمن له تحقيق النصر على الجبهة الفكرية .

ثم نرى الاستعمار في الشوط الأخير يسدل ظلاما شاملا على ذوي الأفكار النافعة من اجل عزلهم عن ضمير شعوبهم أو الضمير الإنساني عموما [13] . إن الاستعمار لا يمل ولا يكل من محاولة تيئيس الشعوب المستعمرة من خلال إشعارها باستحالة تقدمها وجعلها تواجه المشاكل متشائمة لا مستبشرة ودفعها للمطالبة بالحقوق دون الالتفات إلى الواجبات ومحاولة القضاء على روح الاستجابة إزاء التحديات لان

الصعوبات هي تحد خلاق لأنه يستحث الرد عليها كما يقول ارنولد توينبي والرد هو بالكد والجهد والتفكير بالصعوبات ومواجهتها بطريقة مناسبة لان مصدر الصعوبات تتأتى من الأتي :

1. خلل في عالم الأشخاص : عدم وجود رجال في الأمة لديهم القدرة والمعرفة لمواجهة التحديات الداخلية والخارجية التي تواجه بلدهم مما يشتت جهود وأفكار الشعب بما يسهل على الاستعمار إدامة بقائه ونهبه لثرواتهم .
2. خلل في عالم الأفكار: عدم وجود أفكار ومفكرين يستطيعون لم شمل الشعب وتحديد هدفه ورسم مستقبله بما يضمن تخلصه من الأفكار الاستعمارية المهيمنة .
3. خلل في عالم الأشياء : عدم وجود الثروات أو عدم القدرة عن كشفها والتنقيب عنها في باطن الأرض مما يسلب الشعب الركن المادي اللازم للتحرر الوطني .

4.خلل في علاقات العوالم آنفة الذكر بعضها ببعض [14] .

ونخلص من حقل الصراع الفكري إن الاستعمار اشد ما يخشى من الأفكار البناءة لان المجتمع بلا أفكار يتحول إلى مجتمع جاهلي وهذا ما دعا الإسلام إلى إطلاق اسم الجاهلية على الفترة التي سبقته ولم يشفع لهم شعر رائع وأدب فذ من إن يصفهم القرآن بذلك الوصف ، لان التراث الثقافي العربي لم يكن يحوي سوى الديباجة المشرقة الخالية من أي فكر عميق ومن هنا إذا كانت الوثنية في نظر الإسلام جاهلية فان الجهل في حقيقته وثنية لأنه لا يغرس أفكارا بل ينصب أصناما وهذا هو شان الجاهلية ، وهكذا فانه عندما تغرب الفكرة يبزغ الصنم والعكس صحيح غالبا [15]

بناء الحضارة

تأثر مالك بن نبي بالمصلح جمال الدين الأفغاني وعده موقظ هذه الأمة ، وإذا كان جمال الدين الأفغاني قد دعا إلى الوحدة الإسلامية كرد على تخلف المسلمين وتقدم غيرهم (أعدائهم)[16] . فان مالك بن نبي قد دعا إلى مقاربة جديدة لتقدم المسلمين من خلال بنائهم حضارة جديدة على أرضهم من دون استعارة هذه الحضارة من رحم أمة أخرى [17] .

كما يرى مالك بن نبي إن من الصحيح القول إن المسلمين قد أنجزوا مشروع تحررهم السياسي من السيطرة الغربية ، لكنهم لم يستطيعوا لغاية الان من التحرر من السيطرة الحضارية الغربية على مجتمعاتهم إذا إن ثرواتهم تصنع وتسوق بالعقول الغربية والنظريات الغربية والآلة الغربية والأساليب الغربية وان الجيوش الإسلامية تستخدم الأسلحة الغربية وترتدي البذلة الغربية وتعتنق العقيدة العسكرية الغربية وتسير على الأنغام الموسيقية الغربية [18] . فأين الاستقلال إذا ؟ .

إن من أهم أسباب فشل مجتمع معين أو امة معينة هو الابتعاد عن التخطيط والتحديد الدقيق للأهداف بسبب الخوف من الفشل أو من المستقبل ، وكذلك النظرة المشوشة للذات وعدم الإيمان بأهمية الأهداف والعيش في ظلمات الجهل وانتهاج التسويف والتأجيل لمواجهة مشاكل المجتمع مما يؤدي إلى التخلف والانحطاط[19] .

من هنا يشدد مالك بن نبي على ضرورة بناء حضارة إسلامية على الأرض الإسلامية ومن خلال الفرد المسلم على وفق الأعراف والتقاليد الإسلامية ويخالف مالك بن نبي كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في هذا المجال ، فبينما يرى الأفغاني أن إصلاح أوضاع المسلمين يتم بالإصلاح السياسي ويرى محمد عبده أن التقدم الإسلامي لا يتم إلا بإصلاح العقيدة وأساليب الوعظ ، يرى مالك بن نبي إن من العبث وضع ستارا حديديا بين الحضارة التي يريد تحقيقها العالم الإسلامي وبين الحضارة الحديثة ، ومن الجهل في الوقت ذاته، إن تنشا حضارة إسلامية من خلال اقتناء منتجات الحضارة الغربية لان لا يمكن لأي حضارة من الناحية الكيفية ، أن تبيع منتجاتها وتبيع في الوقت نفس روحها وأفكارها وذوقها وثرواتها الذاتية ،

فعندما نشتري منتجات الحضارة الغربية فإنها تمنحنا هيكلها وجسدها لا روحها أما من الناحية الكمية فقد نستطيع أن نحقق "حالة حضارة " من خلال تكديس منتجات الحضارة الغربية إذ ينتهي بنا الأمر إلى " حضارة شيئية " وهذا ما يفعله العالم الإسلامي الذي يعمل منذ عشرات السنين في تجميع أكوام من منتجات الحضارة معتقدا إن ذلك هو الطريق الأفضل لبناء حضارة، وهذا في حقيقة الأمر، لا يحل مشكلة العالم الإسلامي نحن نريد نهضة حضارية كالتي حصلت في روسيا والصين واليابان إذ استطاعت هذه الدول أن تركب حضارة خاصة بها وتخط طريقا خاصا في ركب الحضارة الإنسانية [20] 0

إن معادلة الحضارة عند مالك بن نبي هي :

حضارة = إنسان + تراب + وقت

وتحت هذا الشكل تشير الصيغة إلى إن مشكلة الحضارة تتحلل الى ثلاث مشكلات أولية .. مشكلة الإنسان والتراب والوقت ، فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بان نكدس المنتجات وإنما نحل هذه المشكلات الثلاثة من أساسها . فالحضارة إذا مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح للمجتمع إن ينهض بالاعتماد على إمكاناته الذاتية [21].

واستنادا إلى معادلة مالك بن نبي آنفة الذكر فان شروط الحضارة غير مهيأة اليوم في غالبية الدول الإسلامية فان الإنسان المسلم جاهل ومشوش الذات ومسيطر عليه من قيادات بالية ومرتبطة بالاستعمار إما التراب (الثروات) عند المسلمين فهو بائر والثروات منهوبة نهب مركب من القوى الخارجية واللصوص الداخليين . مع ملاحظة إن مالك بن نبي قد تجنب قصدا استخدام مصطلح (مادة) وفضل عليه مصطلح

تراب من اجل تحاشي اللبس في كلمة مادة حيث أنها تعني في باب الأخلاق مفهوما مقابلا لكلمة روح وتعني في باب العلوم مفهوما تقابل كلمة طاقة.

إما الوقت عند المسلمين فضائع ومهدور وليس له قيمة إذ يمر سدى فوق رؤوس الجماهير العاطلة التي لا تشعر بقيمة الساعات الضائعة ومن هنا نفهم صعوبة بناء حضارة إسلامية في الظروف الموضوعية المعاصرة[22] .

وإذا كانت الحضارة في مجموعها ناتجا لكل من (الإنسان والتراب والوقت) فلماذا لا يوجد هذا الناتج (الحضارة) تلقائيا حيثما توفرت هذه العناصر الثلاثة ؟ وهنا نذهب إلى عالم الكيمياء فان الماء هو ناتج للهيدروجين و الأوكسجين ولا يتكون الماء تلقائيا بوجود هذين العنصرين وإنما يحتاج إلى وجود مركب معين بوجوده تتم عملية تكون الماء . وهذا ما ينطبق تماما على عناصر تكوين الحضارة الثلاثة إذ لا يمكن لنا تأسيس حضارة بوجود عناصرها الثلاث (الإنسان + التراب + الوقت) وإنما نحتاج إلى (مركب حضارة) أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض وهذا (مركب الحضارة) هو (الفكرة الدينية) التي رافقت دائما تركيب الحضارات خلال التاريخ .

من المعلوم أن جزيرة العرب لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة يذهب وقته هباء ، وقد كانت العناصر الثلاثة راكدة خاملة وبعبارة أخرى مكدسة لا تؤدي دورا في الحياة حتى إذا ما تجلت الروح بغار حراء نشأت من هذه العناصر الثلاثة المكدسة حضارة جديدة فكأنما ولدتها كلمة (اقرأ)التي أدهشت النبي الأمي (صلى الله عليه وسلم) وأثارت معه وعليه العالم ، فمن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ إذ ظلت قرونا طويلة تحمل للعالم حضارة جديدة وتقوده إلى التمدن والرقي .

لقد تحول هؤلاء البسطاء ذوو الحياة الراكدة ، عندما مستهم شرارة الروح إلى دعاة إسلاميين تتمثل فيهم خلاصة الحضارة الجديدة من اندفاع إلى حياة فكرية واسعة

ومتجددة نقلت من علوم الأولين ما نقلت وأدخلت علوم جديدة في حاضرات كبغداد ودمشق وقرطبة وسمرقند[23]

ولا يميل مالك بن نبي إلى العيش على هامش الحضارة الغربية بادعاء أنها حضارة إنسانية استمدت أسس تقدمها من إسهامات الحضارات الأخرى بما فيها الحضارة العربية _ الإسلامية واسهم ويسهم في أغنائها شرقيون وغربيون ملاحدة ومؤمنون ولا وجود لطريق أخر إذ يرى إن المسلمين مطالبون بتأسيس حضارتهم الخاصة على وفق تعاليم الإسلام كما فعلت الصين واليابان [24] .

الأصالة والفعّالية

يرى مالك بن نبي وجوب توفر مستلزمات تسهل عمليات الإصلاح المفضي إلى تأسيس حضارة تستطيع إن تقف على قدميها وتأخذ وتعطي من الحضارات الأخرى وتحتفظ في الوقت ذاته بخصوصيتها ومن أهم هذه المستلزمات الإسلام الدين الخاتم صنعت أفكاره تاريخ العالم وهو يحمل الأصالة والفعالية في فكرته وإذ أراد العرب والمسلمون إن يؤسسوا مشروع حضارتهم الجديدة فعليهم إن يوازنوا بين أصالة فكرتهم وفعاليتها. إن الطبيب العربي ابن النفيس هو مكتشف الدورة الدموية قبل الطبيب الانكليزي هارفي بأربعة قرون لكن البشرية لم تستفد من الاكتشاف في زمن ابن النفيس على الرغم إن الفكرة والاكتشاف صحيحان دون إن تكون هذه الفكرة فعالة ذلك أن البشرية تحتاج إلى زمن طويل قبل إن تطبق النظريات الصحيحة وتفيد منها عمليا [25] .

إن الفتوحات الإسلامية في شرق الأرض وغربها عمقت من أصالة الفكرة الإسلامية كما إنها نمت في الوقت نفسه، منطق الفعالية حتى انه في عصر المأمون وبينما كانت الحضارة الإسلامية تفيض على العالم بأنوارها التي كانت تسطع في بغداد كان لا يزال بالإمكان قبول أو إنكار أصالة الحقيقة الإسلامية من النصارى و الصابئين

في بلاط الخليفة وفي حضوره، إنما لم يكن باستطاعة احد إن ينكر فعاليتها من غير إن يكون محلا للسخرية .

إن الغرب اليوم يحارب الإسلام بادعاء أن فكرته قد فقدت فعاليتها من اجل إبقاء المسلم في قبضة الغربي والإبقاء على ديار الإسلام كحقل يجري فيه التنافس بين الأوربيين ، والانكى من ذلك ، أن الصراع الفكري يدور اليوم بين أبناء الإسلام أنفسهم وفي داخل قلعة الإسلام ، بين من يريدون الدفاع عن الإسلام والذين يريدون تسليم الإسلام وأهله إلى الغربيين .

هناك الكثير من المثقفين المسلمين الذين يفتنون بالأشياء الجديدة وبالتالي يُسحرون بمنطق الفعالية ولا يميزون بين حدود توافقها مع مهام مجتمع يريد إن يتقدم من دون إن يفقد خصوصيته .

إن أمام المسلمين لتأسيس مشروع نهضتهم إن لا يكتفوا بإعلان قدسية القيم الإسلامية بل عليهم إن يجعلوها قادرة على مواجهة روح العصر وليس المقصود تقديم تنازلات إلى الدنيوي على حساب المقدس وإنما العودة إلى روح الإسلام ذاته حينما قدم الرسول (صلى الله عليه وسلم) قيم الفعالية على الأصالة عندما عزا بعد رجوعه من إحدى الغزوات في رمضان الانتصار المحقق إلى الذين افطروا في ذلك اليوم "ذهب المفطرون بالأجر "[26] ، وكذلك قدم الفاروق عمر(رضي الله عنه) قيم الفعالية على الأصالة في عام الرمادة عندما أوقف حد السرقة بسبب القحط الذي أصاب ديار المسلمين. على العرب والمسلمين إن يفيدوا من تجارب الأمم الأخرى في بناء الحضارة فهذه ألمانيا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية (1948) بدأت بناءها الاقتصادي والصناعي برأس مال قدره (45) مارك وهذا مبلغ تافه في عالم الاستثمار أما الاستثمار الحقيقي فقد كان في الأفكار وفعالية هذه الأفكار التي هي في رأس كل ألماني وفي تصميم الشعب الألماني وفي التراب الألماني على الرغم أنها كانت محتلة وقتذاك .

وفي الزمن ذاته(1948) بدأت الصين الشعبية بناء حضارتها بعد دمار كبير خلفته على يد الغزاة اليابانيين، والصين كبيرة الشبه بغالبية الدول الإسلامية التي تروم بناء حضارتها الإسلامية المعاصرة .

إن المجتمع الإسلامي يستطيع إن يستعيد فعاليته بان يضع دفعة واحدة في أساس تخطيطه مسلمة مزدوجة :

1. كل الأفواه يجب إن تجد قوتها.
2. جميع الأيدي يجب إن تعمل.

عندئذ سوف لا تكون أفكار المجتمع الإسلامي مثقلة بعدم الفعالية ، لان الأيدي تعمل لتحريك عجلة الديناميكية الاجتماعية وبذلك سيكون المسلمون ليسوا بوارد الدفاع عن أصالة الإسلام وإنما إعادة الفعالية إلى فكرته من خلال تحريك القوى الاجتماعية [27] .

إذا القضية عند مالك بن نبي لا تتمثل في تلقين أو إعادة تلقين المسلم عقيدته ولكنها تتمثل في إعادة تلقينه استخدامها وفعاليتها في الحياة ، وفي رأيه إن المصلحين اغفلوا هذه المشكلة ، ومن وجهة النظر الاجتماعية ، تجابهنا الظروف التاريخية أحيانا بمأزق بحيث يتعين علينا إن نختار بين التمسك بحرفية الدين أو بروحه ، ما دام التمسك بروح الدين لا يضيع جانبا جوهريا منه [28] .

من هنا يدعو مالك بن نبي المسلمين إلى الابتعاد عن مركبات النقص والشعور بالدونية وظاهرة الهروب من الواجب بالتظاهر والتظاهرات وتعويض القنطار بالقطمير والرجوع من العمل وكأن المسلم عاد من ارتكاب جريمة ، كما يوصي علماء الإسلام إن يكونوا بمستوى الأمانة وان لا يسلموها إلى من يضعها تحت قدمه لتكون سلما يصعد عليه لبلوغ المناصب السياسية وان يكونوا أمناء على مصالح الشعب والابتعاد عن الذاتية والأنانية وان يتعلم المسلم الشعور ب (اللانهاية) من خلال الدخول في باب الإعداد الكبيرة أومن باب علم الفلك[29] .

الخاتمة

يعد مالك بن نبي احد أنبغ عباقرة الفكر الذين أهدتهم الجزائر إلى الأمة العربية والإسلامية في القرن العشرين اهتم منذ شبابه بمشكلات الحضارة وأصولها وعوامل نشأتها وانحلالها وبالصراع الفكري والإيديولوجي في البلاد المستعمرة وقد عاصر حركة الإصلاح التي قادها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وأعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أمثال عبد الحميد بن باديس والعربي التبسي والإبراهيمي ، ورغم تفاعله مع الحركة إلا أنه كان دائما يحتفظ بحياده العلمي وفكره المتميز الذي طالما يدعوه إلى نقد أعمال الإصلاحيين أحيانا، وكان من أهم اهتماماته كشف وسائل الاحتلال في إخضاع الشعب وتخدير العقول ومسخ الهوية و اجتهد في وضع الوسائل الناجعة للمقاومة الفكرية التي كانت تغيب عن علماء الشريعة بحكم تكوينهم التقليدي .

يرى مالك بن نبي إن الأزمة التي تهز العالم الإسلامي من طنجة إلى جاكرتا هي في الأساس أزمة حضارية ولن تجد لها حلا إلا ضمن مشروع إنشاء حضارة إسلامية جديدة بالعقول الإسلامية وعلى الأرض الإسلامية وبالثروات والأيادي الإسلامية والافادة مما وصلت إليه البشرية في ميادين العلم والتكنولوجيا من خلال إنشاء كومنولث إسلامي .

ويرى مالك بن نبي إن الحضارة هي نتاج للثقافة والثقافة بدورها ليست إلا مجموعة معارف لا نبوغا في المعرفة وإنما هي سلوك يشترك فيه جميع إفراد المجتمع من ادني السلم الاجتماعي إلى أعلاه.

غادر مالك بن نبي أمة جهلت فكره وسياسيين ضاقوا به ذرعا ، فكيف تدرك فكره الوضاء أمة تمسك بتلابيبها أمية حرف بنسبة سبعين بالمائة ، وأمية فكر بنسبة تقترب من ذلك إن لم تزد ؟ .

إن من يقرؤون اليوم النتاج الفكري لمالك بن نبي يعتقدون كأنه وضعه لمعالجة أزمة العالم العربي والإسلامي في القرن الحادي والعشرين في العراق وأفغانستان وباكستان وفلسطين والخليج العربي ولكننا امة لا تقرأ وإذ قرأت فلا تعتبر .

الهوامش

[1] من وثائق الأمم المتحدة s/1960/755

[2] مالك بن نبي ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ،دمشق دار الفكر ،ط3، 2006ص 10

[3] مالك بن نبي ،شروط النهضة ،دمشق ،دار الفكر ،2004ص33

[4] مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص36

[5] مالك بن بني ، القضايا الكبرى ، دمشق دار الفكر ،ط5 ، 2005 ، ص32

[6] مالك بن نبي ، وجه العالم الإسلامي ، دمشق ، دار الفكر ، ط1 ، 2004 ، ص85

[7] محمد حسنين هيكل ، الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق ، القاهرة ، دار الشروق ،ط2 .2003 ، ص39

[8] د. شفيق الجراح ، دراسة في تطور الحقوق الرومانية ومؤسساتها ، دمشق ، مطبعة جامعة دمشق ، ط6 ، 2001 ،ص152

9 مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص152

10مالك بن نبي ،القضايا الكبرى ، ص78

[11] مالك بن نبي ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ص15

[12] بديع الزمان ألنورسي ، محاكمات عقلية ، ترجمة إحسان قاسم الصالح ، بغداد ، مطبعة منير ، ط1، 1991، ص29

13الك بن نبي ، الصراع الفكري في البلاد المستعمر ، ص16

[14] مالك بن نبي ، تأملات ، دمشق ، دار الفكر ، ط1 ، 2002 ، ص21

[15] مالك بن نبي شروط النهضة ،ص30

16 الأفغاني ، جمال الدين ، نوابغ العرب، بيروت ، دار العودة ، ط1 ، 1980 ، ص87

17 مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص47

18 زهدي الفاتح ، لورنس العرب على خطى هيرتزل ، دار النفائس ، ط4 ، 1991 ،ص38

[19] د. إبراهيم ألفقي ، سيطر على حياتك ، دمشق ، دار التوفيق ، ط2 ، 2008 ، ص19 –23

20 مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص48

21 مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص49

22 مالك بن نبي ، تأملات ،

23 مالك بن نبي ، شروط النهضة ،ص57

24 نبيه فارس وتوفيق حسين،هذا العالم الإسلامي،القاهرة ، مطبعة النهضة ،ط1، 1958 ،ص 214

25 مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، دمشق ، دار الفكر ، ط6 ، 2005 ، ص103

[26] صحيح البخاري ،ج3 ، ص 1058

27 مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ص117

28 مالك بن نبي ، القضايا الكبرى ،ص 123

29 مالك بن نبي ، مذكرات شاهد للقرن ، دمشق ، دار الفكر ، ط2 ، 2004 ، ص368

المصادر

القران الكريم
1. الافغاني، جمال الدين، نوابغ العرب، بيروت، دار العودة، ط1، 1980 .
2. بديع الزمان ألنورسي ، محاكمات عقلية ، ترجمة إحسان قاسم ألصالحي ، بغداد ، مطبعة منير ، ط1 ، 1991
3. د. إبراهيم ألفقي ، سيطر على حياتك ، دمشق ،دار التوفيق ،ط2008،2
4. د. شفيق الجراح ، دراسة في تطور الحقوق الرومانية ومؤسساتها ، دمشق ، مطبعة جامعة دمشق ، ط6 ، 2001
5. زهدي الفاتح ، لورنس العرب على خطى هيرتزل ، بيروت ، دار النفائس ، ط4 ، 1991
6. صحيح البخاري،ج3،ص 1058
7. مالك بن نبي ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، دمشق ، ط2006،6
8. مالك بن نبي ، القضايا الكبرى ، دمشق ،دار الفكر ،ط5 ، 2005
9. مالك بن نبي ، تأملات ،دمشق ، دار الفكر ،ط2 ،2002
10. مالك بن نبي ، شروط النهضة ، دمشق ،دار الفكر ،ط3 ،2004
11. مالك بن نبي ، مذكرات شاهد للقرن ، دمشق ، دار الفكر ، ط2 ،2004
12. مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، دمشق ، دار الفكر ، ط6، 2005
13. مالك بن نبي ،وجهة العالم الإسلامي ، دمشق ، دار الفكر ،ط1 2004
14. محمد حسنين هيكل ، الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق ، القاهرة ،دار الشروق ،ط2 ، 2003
15. من وثائق الأمم المتحدة 1960/s /755.
16. نبيه فارس وتوفيق حسين، هذا العالم الاسلامي، القاهرة، مطبعة النهر، ط1، 1958.